تفسير سورةُ الفرقان
من آية (60) إلى آية (67)
اللقاء التاسع

المعنى الإجمالي من آية (51) إلى آية (59):

ولو شاء اللهُ تعالى لجعَلَ في كلِّ قَريةٍ رَسولًا يُنذِرُ النَّاسَ عَذابَ اللهِ ويدعوهم إليه؛ فلا تُطِعِ الكافرين -يا محمَّدُ- فيما يُريدونَه مِن عبادةِ آلهتِهم، أو تَرْكِ شَيءٍ مما أُرسِلتَ به، وجاهِدْهم بالقُرآنِ جِهادًا شديدًا.

واللهُ وحْدَه هو الذي أرسل البَحرينِ وخلَّاهما؛ أحدُهما شديدُ العذوبةِ، والآخَرُ شديدُ الملوحةِ، وهو بقدرتِه يَفصِلُ بيْنهما ويمنَعُهما التَّمازُجَ والاختِلاطَ.

وهو وحْدَه الذي خلَقَ مِن المنِيِّ إنسانًا، فجعَلَ ذلك الإنسانَ ذا نَسَبٍ وذا صِهرٍ، ولم يزَلْ سُبحانَه قَديرًا على كلِّ شَيءٍ.

يقولُ تعالى مبيِّنًا موقفَ المشركينَ مِن هذه النِّعمِ العظيمةِ: ويعبُدُ هؤلاء المشرِكون آلهةً مِن دونِ اللهِ لا تنفَعُهم ولا تضُرُّهم، وكان الكافِرُ مُظاهِرًا ومُعاوِنًا للشَّيطانِ وحِزبِه على عداوةِ الله؛ يُشرِكُ به ويعصيه، ويُوالي أعداءَه، ويُحارِبُ أولياءَه.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى الوظيفةَ التي مِن أجْلِها أرسَل رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقول تعالى: وما أرسَلْناك -يا محمَّدُ- إلى النَّاسِ إلَّا لتبشِّرَهم بثوابِ اللهِ إذا آمَنوا بالله، ولِتُنذِرَهم عِقابَه وغَضَبَه إنْ كَفَروا وكذَّبوا. ويأمرُ الله نبيَّه أن يقولَ لمن أُرسِل إليهم: لا أسألُكم على تبليغِ رِسالةِ الله إليكم مالًا، لكِنْ مَن شاء منكم أن يتَّخِذَ إلى مَرضاةِ رَبِّه سَبيلًا، كالصَّدَقةِ في سبيلِ الله، فليفعَلْ.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يتوكَّلَ عليه، ويستعينَ به، فيقول: واعتَمِدْ على اللهِ الحيِّ الباقي الذي لا يموتُ، ونزِّهْه عن كلِّ نَقصٍ مُثنيًا عليه بصِفاتِ كَمالِه، وكفى برَبِّك خبيرًا عَليمًا بذُنوبِ عِبادِه، وسيُجازيهم عليها.

الذي خلق السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما مِن المخلوقاتِ في ستَّةِ أيَّامٍ، ثُمَّ علا على العَرشِ علُوًّا يليقُ بجَلالِه: الرَّحمنُ؛ فاسألْ -يا محمَّدُ- عن الرَّحمنِ عالِمًا يخبِرْك عنه.

(أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ)

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ ﴿60﴾

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا) أي: وإذا قيلَ لأولئك المشرِكين: اسجُدوا للرَّحمنِ الذي أنعَمَ عليكم بالنِّعَمِ، ودفَعَ عنكم النِّقَمَ دونَ غيرِه؛ قالوا متعَجِّبين وكافرين بالله ومُنكِرين لاسمِه الرَّحمنِ: لا نعرِفُ الرَّحمنَ! أنطيعُك -يا محمَّدُ- فنَسجُدُ لله وحْدَه لمجرَّدِ قَولِك وأمْرِك بذلك. موسوعة التفسير

قال ابنُ عثيمين: (هذا السجودُ يحتَمِلُ أن يرادَ به السجودُ الخاصُّ الذي هو خرورُ الإنسانِ على أعضائِه السبعةِ، ويحتمِلُ أنَّ المرادَ به السجودُ العامُّ الذي هو الخضوعُ المطلَقُ؛ لأنَّ السجودَ يُطلَقُ بالمعنيين: السجودُ العامُّ الذي هو الخضوعُ والذُّلُّ مُطلقًا، أو السجودُ الخاصُّ على هذه الأعضاءِ المعروفةِ).

قال ابن عاشور: (السجودُ الذي أُمِروا به سُجودُ الاعترافِ له بالوَحدانيَّةِ، وهو شِعارُ الإسلامِ، ولم يكنِ السُّجودُ مِن عبادتِهم، وإنَّما كانوا يَطوفون بالأصنامِ، وأمَّا سُجودُ الصَّلاةِ التي هي مِن قواعدِ الإسلامِ فليس مُرادًا هنا؛ إذ لم يكونوا ممَّن يُؤمَرُ بالصَّلاةِ، ولا فائدةَ في تكليفِهم بها قبْلَ أن يُسْلِموا).

كما قال تعالى: وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ [الرعد: 30].

وقال سُبحانَه: قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى [الإسراء: 110].

(وَزَادَهُمْ نُفُورًا) أي: وزاد المشرِكينَ أمْرُهم بالسُّجودِ للرَّحمنِ كراهيةً وفِرارًا مِن الحَقِّ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا [الإسراء: 46].

وقال عزَّ وجلَّ: وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ [الزمر: 45].

وقال سُبحانَه: فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ [المدثر: 49 - 51].

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ ﴿61﴾

(تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا) أي: تعاظَمَ اللهُ، وكَمَلَت أوصافُه، وكثُرتْ خَيراتُه، ودامتْ وثبَتَتْ بَرَكاتُه، فهو الذي جعَلَ في السَّماءِ منازِلَ للشَّمسِ والقَمَرِ في مَسيرِهما. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ [الحجر: 16].

وقال عزَّ وجلَّ: وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ [البروج: 1].

(وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا) أي: وخلَقَ اللهُ في السَّماءِ شَمسًا مُشرِقةً تَبعَثُ النُّورَ والحرارةَ، وقمرًا مُضيئًا في اللَّيلِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا [يونس: 5].

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ ﴿62﴾

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً) أي: واللهُ هو الذي جعَل اللَّيلَ والنَّهارَ بحيث يَخلُفُ أحدُهما الآخَرَ، فهُما يَتعاقبانِ أبدًا، ولا يجتَمِعانِ. موسوعة التفسير

وقال سُبحانَه: وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ [إبراهيم: 33].

(لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا) أي: جعَل اللهُ اللَّيلَ والنَّهارَ خِلفةً لِمَن أراد أن يتَّعِظَ ويعتبِرَ ويتفَكَّرَ في اختِلافِهما، أو أراد شُكرَ اللهِ على نِعَمِه، فيَعبُدُه فيهما، ويَستَدرِكُ ما فاته في أحَدِهما فيَعمَلُه في وقتِ الآخَرِ. موسوعة التفسير

والمقصود بهذه الآية أن نعلم أن في اختلاف الليل والنهار وفي تغيُّر أوصاف الأزمان، أنَّ في ذلك عبرةً عظيمةً كبيرةً جليلةً، تدعو الموفَّق إلى التفكُّر في قدرة الله العظيمة، ومشيئته التامَّة، وعظمته المتناهية، بما يلزم المسلم بالخضوع لله -جلَّ وعلا-، والتذلُّل له -عزَّ شأنُه-، وبما يفرض عليه الإنابةَ الحقَّةَ والاستجابةَ لشرعه القويم.

قال السعدي: أي: لِمن أراد أن يتذكَّرَ باللَّيلِ والنَّهارِ ويعتَبِرَ ويستَدِلَّ بهما على كثيرٍ مِن المطالِبِ الإلهيَّةِ، ويشكُرَ اللهَ على ذلك، ولِمَن أراد أن يذكُرَ اللهَ ويَشكُرَه وله وِردٌ مِن اللَّيلِ أو النَّهارِ، فمَن فاته وِردُه مِن أحَدِهما أدرَكَه في الآخَرِ، وأيضًا فإنَّ القُلوبَ تتقَلَّبُ وتنتَقِلُ في ساعاتِ اللَّيلِ والنَّهارِ، فيَحدُثُ لها النَّشاطُ والكسَلُ، والذِّكرُ والغَفلةُ، والقَبضُ والبَسطُ، والإقبالُ والإعراضُ، فجعَل اللهُ اللَّيلَ والنَّهارَ يتواليانِ على العبادِ ويتكرَّران؛ ليَحدُثَ لهم الذِّكرُ والنَّشاطُ والشُّكرُ لله في وَقتٍ آخَرَ، ولأنَّ أورادَ العباداتِ تتكرَّرُ بتكَرُّرِ اللَّيلِ والنَّهارِ، فكلَّما تكرَّرت الأوقاتُ أحدَثَ للعبدِ هِمَّةً غيرَ هِمَّتِه التي كَسِلت في الوَقتِ المتقَدِّمِ، فزاد في تذكُّرِها وشُكرِها، فوظائفُ الطَّاعاتِ بمنزلةِ سَقيِ الإيمانِ الذي يمُدُّه، فلولا ذلك لَذَوى غَرسُ الإيمانِ ويَبِسَ.

قال النبيّ -ﷺ-:"إنَّ الإيمانَ لَيَخْلَقُ في جَوْفِ أحدِكُمْ كما يَخلَقُ الثّوبُ، فاسْأَلُوا اللهَ تعالَى: أنْ يُجَدِّدَ الإيمانَ في قُلوبِكمْ" صحيح الجامع

وعن أبي موسى الأشعريّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ الله عزَّ وجلَّ يَبسُطُ يَدَه باللَّيلِ لِيَتوبَ مُسيءُ النَّهارِ، ويَبسُطُ يدَه بالنَّهارِ لِيَتوبَ مُسيءُ اللَّيلِ، حتَّى تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مَغرِبِها)) رواه مسلم.

وعن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنه، عن النبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن نام عن حِزبِه أو عن شَيءٍ منه، فقرأَه فيما بيْن صَلاةِ الفَجرِ وصَلاةِ الظُّهرِ؛ كُتِب له كأنَّما قَرَأه مِنَ اللَّيلِ)) رواه مسلم.

وعن عائِشةَ رَضِيَ الله عنها: ((أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان إذا فاتَتْه الصَّلاةُ مِن اللَّيلِ مِن وَجَعٍ أو غَيرِه، صلَّى مِنَ النَّهارِ ثِنْتَيْ عَشْرةَ ركعةً)) رواه مسلم.

وسَلَف هذه الأمةِ -لكمالِ خوفهم من الله جل وعلا، وخشيتهم له -سبحانه- تجدُهم يعتبرون باختلاف الأزمان ولهم في ذلك شأن عظيم، وَلَمَّا مَرِضَ أبو الدرداء مرضَ الوفاةِ قال: "اللهمَّ إنَّكَ تعلم أنِّي لم أكن أُحِبُّ البقاءَ في الدنيا لِجَرْيِ الأنهارِ، ولا لغرسِ الأشجارِ، ولكن لظمأِ الهواجرِ ومكابَدةِ الليلِ، ومزاحَمةِ العلماءِ بالرُّكَبِ عند حِلَقِ الذِّكْرِ". أما من لا يعتبر، وشغله الشاغل الدنيا وحطامها فهذا الخاسر خسارة عظيمة لا تجبر، يقول سعيد بن مسعود رحمه الله تعالى: "إذا رأيتَ العبدَ تزداد دنياه وتنقُص آخرته وهو بذلك راضٍ فذلك المغبونُ الذي يُلعَب بوجهه وهو لا يشعر".

عمر الإنسان في هذه الحياة محصور، ودرجته في الآخرة مبنية على هذه الأيام التي تعيشها، فإذا قدمت لنفسك صالحاً كنت من السعداء، وإذا أهملت نفسك في هذه الحياة وفرطت في ساعاتك ندمت في الآخرة، والله عز وجل ذكر أنك مرهون في الآخرة بعملك في الدنيا، قال سبحانه: (وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلا مَا سَعَى). [النجم: 39].

فالسعيدُ من زهَدَ في هذه الدار، وأشغلَ جوارِحَه بمُراقبة العزيز الغفَّار، وألزَمَ نفسَه الاتِّعاظَ والادِّكارَ، ودأَبَ في طاعة الأوامر والاستجابةِ والمحافظة على ذلك مع تغايُرِ الأحوال والأطوارِ.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ ﴿63﴾

إنَّ لله -تبارك وتعالى- عبادًا شرَّفهم الله -تبارك وتعالى- بحُسن العبودية، وكمَّلهم بطِيب التقرب وجمال الطاعة لله -تبارك وتعالى-، أضافهم الله -جل وعلا- إلى نفسه تشريفًا لهم وتعليةً لمقامهم وبيانًا لعظيم مثوبتهم وجزيل أجرهم عند الله -جل وعلا.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن باديس: لَمَّا تجاهَلَ المشرِكون الرحمنَ، واستكبَروا عن السجودِ له؛ عَرَّفَهم القرآنُ بالرحمنِ: بخَلْقِه، وتدبيرِه وإنعامِه -كما مضى في الآياتِ المتقدمةِ- ثم عَرَّفَهم بعِبادِه الذين عَرَفوه بذلك فآمنوا به وخضَعوا له، بما اشتملتْ عليه هذه الآياتُ مِن صفاتِهم، وكما كانت مخلوقاتُ الله المذكورةُ سابقًا دالَّةً عليه، ومعَرِّفةً به، بما فيها مِن آثارِ قدرتِه وآثارِ رحمتِه، كذلك كان عِبادُه المذكورون أدِلَّةً عليه ومعَرِّفين به؛ بأقوالهم وأفعالِهم، وهَديِهم وسلوكِهم، ومَظاهِرِ آثارِ رحمةِ الله عليهم.

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا) أي: وعِبادُ الرَّحمنِ هم الذين يَمشون بحِلْمٍ وسَكينةٍ، ووَقارٍ وتواضُعٍ، ورِفقٍ ولينٍ، مِن غَيرِ مَرَحٍ وتكبُّرٍ وتجبُّرٍ، وسَعيٍ للإفسادِ وارتكابِ المعاصي. موسوعة التفسير

وعباد الرحمن هم المنسوبون إلى الله وحده، فكما أنَّ هناك عِبادًا للشيطان وللطاغوت وللشهوات، فإنَّ هناك عبادًا لله، وكما أنَّ هناك عبادًا للدنيا، فإن هناك عبيدًا لله وحده.

عباد الرحمن نسَبهم الله إلى ذاته «عباد الرحمن»، إنه الرحمن الذي عِلم أنهم أهلٌ لرحمته، وأنَّ رحمته تحيطهم عن يمينٍ وشمال، ومن فوقهم ومن تحتهم؛ ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: 61].

قال ابن عثيمين: (ثمَّ إنَّ هذا المشيَ، هل هو المشيُ الحِسِّيُّ، أو يعُمُّ المشيَ الحسِّيَّ والمعنويَّ؟ الجوابُ: يَعُمُّهما جميعًا، حتَّى المشيَ المعنويَّ؛ بدليلِ قولِه عزَّ وجلَّ: وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا، وهذا مِن هَونِ المشيِ المعنويِّ؛ أنَّهم إذا خاطَبَهم الجاهلون لا يتسرَّعون فيقابلونَه بمِثلِ جَهلِه، ولكِنَّهم يقولون: سلامًا).

قال ابن عاشور: والمشيُ الهَونُ مخالِفٌ لمشْيِ المتجبِّرينَ المعجَبين بنفوسِهم وقوَّتِهم. وهذا الهَونُ ناشئٌ عن التواضُعِ لله تعالى، والتخَلُّقِ بآدابِ النفْسِ العاليةِ، وزوالِ بطَرِ أهلِ الجاهليَّةِ، فكانت هذه المِشيةُ مِن خلالِ الذين آمنوا على الضِّدِّ مِن مَشيِ أهلِ الجاهليَّةِ... والتخَلُّقُ بهذا الخُلقِ مَظهرٌ مِن مَظاهِرِ التخَلُّقِ بالرَّحمةِ المناسِبِ لعبادِ الرَّحمنِ؛ لأنَّ الرَّحمةَ ضِدُّ الشِّدَّةِ، فالهَونُ يناسِبُ ماهيَّتَها، وفيه سلامةٌ مِن صَدمِ المارِّينَ.

وليس معنى يمشون على الأرض هونًا أنهم يمشون متماوتين مُنكسي الرؤوس كما يفهم بعض الناس، فهذا رسول الله كان أسرع الناس مشية وأحسنها وأسكنها؛ قال أبو هريرة رضي الله عنه: «ما رأيت شيئًا أحسن من رسول الله، كأن الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أحدًا أسرع في مشيته من رسول الله، كأنما الأرض تُطوى له».

إنما النهي عن مشي المرح والبطر والفخر والاختيال؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: 37].

وهذا لقمان يوصي ابنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [لقمان: 18-19].

لا تُبعد وجهك عن الناس إذا كلَّمتهم أو كلموك؛ احتقارًا منك لهم واستكبارًا عليهم، ولا تمش في الأرض بين الناس مختالًا متبخترًا، إن الله لا يحب كل متكبر متباهٍ في نفسه وهيئته وقوله.

ولا تُكلِّم الناس وأنت مُعرضٌ عنهم بل أقبِل عليهم بوجهك، وتواضع وابتسم فالابتسامة صدقة، والله لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ.

روى مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -ﷺ-قال: «بيْنَما رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ، يَمْشِي في بُرْدَيْهِ قدْ أعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ، فَخَسَفَ اللَّهُ به الأرْضَ، فَهو يَتَجَلْجَلُ فيها إلى يَومِ القِيامَةِ».

(وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) أي: وإذا خاطَبَ السُّفَهاءُ عِبادَ الرَّحمنِ بما يَكرَهونَه، أجابوهم بقَولٍ سَدادٍ وصَوابٍ، ويَعفُون عنهم ويَصفَحون، فيَسْلَمون مِن الإثمِ، ومِن مُقابَلةِ جَهلِهم بالإساءةِ إليهم، ومِن تطاوُلِهم في أذيَّتِهم. موسوعة التفسير

فعباد الرحمن لا يلتفتون إلى جهل الجهلاء، وسفه السفهاء، ويترفعون عن الرد عن كل سب وشتم واستهزاء، إنما هم أكرم وأرفع.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي قال: «ما من شيءٍ أثقلُ في ميزانِ المؤمنِ يومَ القيامةِ من خُلقٍ حسنٍ وإنَّ اللهَ يُبغضُ الفاحشَ البذيءَ»؛ [الترمذي وابن حبان في صحيحه].

قال ابن باديس: الإغضاءُ عنِ الجاهلِ، ومُقابَلةُ كلمتِه السيِّئةِ بالكلامِ الحسنَ، وكراهةُ مجاراتِه في خِطابِه ومُماثَلتِه، وإذا كان في ذلك فِتنةٌ أو مَفسَدةٌ محقَّقةٌ كان حرامًا.

قال ابن باديس: القولُ السَّلامُ محمودٌ ومطلوبٌ في كلِّ حالٍ، وإنما خُصَّتْ حالةُ الخِطابِ بالجاهلِ؛ لأنَّها الحالةُ التي تَثورُ فيها ثائِرةُ الغضَبِ بما يكونُ مِن سَفَهِه ومهاترته، فعلى المؤمنِ أن يكونَ حاضِرَ البالِ بهذه الآيةِ عندَما تسوقُ إليه الأقدارُ جاهلًا فيُخاطبُه بما لا يُرضيه؛ حتى يَسلَمَ مِن شَرِّهِ، ويَكسِرَ مِن شِرَّتِه، فيَسلَمَ له عِرْضُه ومروءتُه ودينُه، ويَسلَمَ ذلك الجاهلُ أيضًا مِن اللَّجاجِ في الشَّرِّ والتمادي فيه، فيكونُ المؤمِنُ بقولِه «السَّلام» وتأدُّبِه بأدبِ القرآنِ قد حَصَّلَ السَّلامةَ للجَميعِ.

قال -صلى الله عليه وسلم-: "ليسَ الشَّدِيدُ بالصُّرَعَةِ، إنَّما الشَّدِيدُ الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ" صحيح البخاري.

لا تظُنُّوا أنَّ الرَّجلَ القويَّ هو ذلك الرَّجلُ الَّذي يَتمتَّعُ بقوَّةٍ بَدنيَّةٍ يَستطيعُ بها أنْ يَصرَعَ الآخَرين، وإنَّما الرَّجلُ القويُّ حقًّا الكاملُ في قوَّتِه، هو الرَّجلُ القويُّ في إرادتِه، الَّذي يَستطيعُ أنْ يَتحكَّمَ في نفْسِه عندَ الغَضبِ، ويَكظِمَ غَيْظَه ويتحَلَّمَ، ويَمنَعُ نفْسَه عن تَنْفيذِ ما تَدْعوه إليه مِن إيذاءِ النَّاسِ بالشَّتْمِ والضَّرْبِ والعُدوانِ، وغيرِ ذلك من أنواعِ الإيذاءِ. الدرر السنية

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ ﴿64﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن باديس: لَمَّا ذَكَرَ سُبحانه فيما تقدَّمَ سلوكَهم مع الخَلقِ؛ ذَكَر في هذه الآيةِ سلوكَهم في القيامِ بعبادةِ الحقِّ، وفيما تَقَدَّمَ بيانُ حالِهم عندَ اختلاطِهم بالعِبادِ، وفي هذه بيانُ حالِهم عندَ تَفرُّدِهم لربِّ العبادِ

(وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا) أي: وعِبادُ الرَّحمنِ هُمُ الذين يُصَلُّونَ في اللَّيلِ مُخلِصينَ لرَبِّهم، وهم في ذلك بيْنَ سُجودٍ وقِيامٍ. موسوعة التفسير

قال الزجاج: (كلُّ مَن أدركه اللَّيلُ فقد بات يبيتُ، نام أو لم ينَمْ... إنَّما المبيتُ إدراكُ اللَّيلِ).

شتان بين من يقضي الليل في طاعة الله، وبين من يقضيه في معصية الله. شتان بين من يسهر في لهوٍ وعبث حتى قُرب الفجر، فإذا قرب الفجر نام، وبين من يقضي الليل صلاةً واستغفارًا وتسبيحًا ونومًا على ذكر الله.

قال صلى الله عليه وسلم: «إنَّ في الجنةِ غُرَفًا يُرَى ظَاهِرُها من باطِنِها، وباطِنُها من ظَاهِرِها. فقال أبو مالِكٍ الأَشْعَرِيُّ : لِمَنْ هيَ يا رسولَ اللهِ ؟ قال : لِمَنْ أَطَابَ الكَلامَ ، و أَطْعَمَ الطَّعَامَ ، و باتَ قائِمًا و الناسُ نِيامٌ »؛ حسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي «1616».

كما قال تعالى: تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا [السجدة: 16].

وقال سُبحانَه: أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ [الزمر: 9].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ [الذاريات: 16 - 18].

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ ﴿65﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن باديس: لَمَّا ذَكَرَ سبحانه حُسنَ سلوكِهم مع الخَلقِ، واجتهادَهم في عبادةِ الحقِّ؛ ذَكَر خَوفَهم مِن ربِّهم، واعتمادَهم عليه في نجاتِهم، وعدَمَ اعتزازِهم بأعمالِهم، فهُم يأتون ما يأتون مِن محاسِنِ الأعمالِ، ولا يَعتمدون إلَّا على الكبيرِ المتعالِ

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ) أي: والذين يقولونَ خَوفًا وحَذَرًا مِن عَذابِ اللهِ: ربَّنا ادفَعْ عنَّا عذابَ جَهنَّمَ، بتَوفيقِنا للطَّاعاتِ، واجتِنابِ المعاصي، وتَكفيرِ السَّيِّئاتِ. موسوعة التفسير

قال القاسمي: المرادُ مِن قولِهم ذلك: فزَعُهم منها، ووَجَلُهم الشديدُ المستتبِعُ لِتَمسُّكِهم بالتَّقوى، واعتِصامِهم بالسَّببِ الأقوى، لا مجرَّدُ قلقلةِ اللِّسانِ، بلا تأثُّرٍ مِن الجَنانِ؛ فإنَّهم لم يَتَهلوا إلى المولى ويتعَوَّذوا به مِن سَعيرِها، إلَّا لعِلمِهم بسوءِ حالِها. ومُقتضى العلمِ بالشَّيءِ إيفاؤُه حقَّه، والعملُ بموجَبِه.

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ [المعارج: 26 - 28].

(إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا) أي: إنَّ عذابَ جهنَّمَ مُلازِمٌ لأهلِ النَّارِ لا يُفارِقُهم، مُهلِكٌ لهم. موسوعة التفسير

قال رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "نَارُكُمْ جُزْءٌ مِن سَبْعِينَ جُزْءًا مِن نَارِ جَهَنَّمَ، قيلَ: يا رَسولَ اللَّهِ، إنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً، قالَ: فُضِّلَتْ عليهنَّ بتِسْعَةٍ وسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا" صحيح البخاري.

فنارُ الآخِرة تَزيدُ قوَّةُ حَرارتِها عن حَرارةِ نارِ الدُّنيا بتِسعةٍ وستِّينَ جُزءًا.

كما قال تعالى: يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ [المائدة: 37].

وقال سُبحانَه: مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا [الإسراء: 97].

وقال عزَّ وجلَّ: فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا [الفرقان: 77].

﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ ﴿66﴾

(إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا) أي: إنَّ جَهنَّمَ قَبُحَت مَنزِلًا يَستقِرُّ فيه أهلُها، وبِئسَت موضِعَ إقامةٍ يَمكُثونَ فيها. موسوعة التفسير

قال ابن باديس: إنَّ جهنَّمَ هي أقبَحُ مُستقَرٍّ، وأقبَحُ مُقامٍ، وإنَّ الدنيا هي مَطيَّةُ الآخرةِ، فمَن ساء مُستقَرُّه ومُقامُه في الدنيا، ساء كذلك مُستقَرُّه ومُقامُه في الآخرةِ، وإنَّ مُلازَمةَ العذابِ في الآخرةِ على قَدْرِ مُلازمةِ المعاصي في الدُّنيا؛ فمَن لازَمَها بالكفرِ ومات عليه دامتْ له تلك الملازَمةُ، ومَن لازَمَها بالإصرارِ على الكبائرِ كانت له على حسَبِ تلك الملازمةِ؛ فعلى العاقلِ أن يُحسنَ مَقَرَّه ومُقامَه، وأن يَجتنبَ كلَّ موطنٍ تَلحَقُه فيه المَلامةُ، وأن يَجتنبَ مجالسَ السُّوءِ والبدعةِ، ويلازِمَ مجالسَ الطاعةِ والسُّنَّةِ، وأن يُسرعَ

بالتوبةِ مفارِقًا الذنوبَ، وألَّا يُصِرَّ على شَيءٍ مِن القبائحِ والعُيوبِ، وأن يكونَ سريعَ الرُّجوعِ إلى اللهِ، ولو عَظُمَ ذَنبُه وبَلْواه؛ فاللهُ يحِبُّ التوَّابينَ، ويَغفِرُ للأوَّابينَ.

قال ابن باديس: زعَم قَومٌ أنَّ أكمَلَ أحوالِ العابدِ أن يعبُدَ اللهَ تعالى لا طمعًا في جنَّتِه، ولا خوفًا مِن نارِه! وهذه الآيةُ وغيرُها ردٌّ قاطعٌ عليهم، ومثلُها قولُ إبراهيمَ -عليه وعلى آلِه الصلاةُ والسلامُ: وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ [الشعراء: 82]، وفي نصوصٍ لا تُحصى كَثرةً، وزعموا أنَّ كمالَ التعظيمِ لله ينافيه أن تكونَ العبادةُ معها خوفٌ مِن عقابِه، أو طمَعٌ في ثوابِه! وأخطؤوا فيما زعموا؛ فإنَّ العبادةَ مَبْناها الخضوعُ والذُّلُّ والافتقارُ، والشعورُ بالحاجةِ والاضْطِرارِ، وإظهارُ العبدِ هذه العبوديةَ بأتمِّها، ومِن أتمِّ مَظهرٍ لها أن يخافَ ويطمَعَ، كما يذِلُّ ويخضَعُ.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ ﴿67﴾

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا) أي: والذين إذا أنفقوا أموالَهم على أنفُسِهم وأهليهم وغَيرِهم، لم يُجاوِزوا الحَدَّ في إنفاقِها فيُبَذِّروا، ولم يُقصِّروا في النَّفَقةِ عن قَدرِ الحاجةِ فيَبخَلوا. موسوعة التفسير

ذمُّ الإسرافِ والإقتارِ في النَّفَقةِ، ومدحُ التوسُّطِ، فلَمَّا كان المالُ هو أعزَّ شيءٍ في هذه الدنيا، وهو أعظَمُ سببٍ لِنَيلِ مُبتغياتِها؛ وُصِفوا بأنَّهم في تصرُّفاتِهم فيه على أكمَلِ حالٍ، وهي حالةُ العَدلِ التي أثمَرَتْها لهم الصَّلاةُ؛ فلا يُمسِكونَه عن حقٍّ، ولا يَبذُلونَه في باطلٍ، وكان التوسُّطُ في الإنفاقِ هو حالَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فكان مُقتَصِدًا في حالِ فَقرِه وغِناهُ؛ فإن كان فقيرًا لم يقتِّرْ خوفًا مِن نَفادِ الرِّزقِ، ولم يُسرِفْ فيَحمِلِ ما لا طاقةَ له به، كما أدَّب اللهُ تعالى نبيَّه بذلك في قَولِه تعالى: وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا [الإسراء: 29] ، وإن كان غنيًّا لم يحمِلْه غِناهُ على السَّرَفِ والطُّغيانِ، بل يكونُ مقتَصِدًا أيضًا، وإن كان المؤمِنُ في حالِ غِناهُ يَزيدُ على نفَقتِه في حالِ فَقرِه، كما قال بعضُ السَّلَفِ: (إنَّ المؤمِنَ يأخُذُ عن الله أدبًا حَسَنًا؛ إذا وسَّع الله عليه وسَّعَ على نفْسِه، وإذا ضيَّقَ عليه ضَيَّق على نفْسِه، ثمَّ تلا قَولَه تعالى: لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ [الطلاق: 7]). لكِنْ يكونُ في حال غِناهُ مقتَصِدًا غيرَ مُسرِفٍ، كما يفعلَهُ أكثَرُ أهلِ الغِنى الذين يُخرِجُهم الغِنى إلى الطُّغيانِ، كما قال تعالى: كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى [العلق: 6، 7].

كما قال تعالى: وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ [الأعراف: 31].

وقال سُبحانَه: وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا [الإسراء: 26، 27].

وعن عمَّارِ بنِ ياسرٍ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال في دعائه: ((وأسألُك القَصدَ في الفَقرِ والغِنى)) صحيح سنن النسائي.

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((كُلوا واشرَبوا وتصَدَّقوا والبَسُوا، في غيرِ مَخيلةٍ، ولا سَرَفٍ)).

(وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) أي: وكان إنفاقُهم مُعتَدِلًا وسَطًا بيْنَ الإسرافِ والتَّقتيرِ. موسوعة التفسير

قال ابن باديس: مَن راضَ نفْسَه على الطاعةِ، ودانتْ نفْسُه بالإخباتِ والانقيادِ للأوامرِ الشرعيَّةِ؛ ضَعُفَتْ منه أو زالتْ دواعي الشَّرِّ والفسادِ؛ فانكفَّ عنِ المعصيةِ، لذا قدَّم الله تعالى إثباتَ الطاعاتِ في قولِه: وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ ... على انتفاءِ المعاصي في قولِه: وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ ...؛ تنبيهًا على ذلك، ومِن هنا نعلَمُ أنَّ على المسلمِ الذي يعملُ لتزكيةِ نفْسِه أن يُواظِبَ على الطاعاتِ بأنواعِها، وأن يجتهِدَ في حصولِ الأُنسِ بها، والخشوعِ فيها؛ فإنَّ ذلك -زيادةً على ما يثبِّتُ فيه مِن أصولِ الخَيرِ- يَقلَعُ منه أصولَ الشَّرِّ، ويُميتُ منه بواعثَه.

ليس شيء أغلى ولا أعز ولا أعظم ولا أثمن من العمر.. وأعظم علامات التوفيق أن توفق لاستعماله فيما ينفعك في دنياك أو يرفعك في أخراك.. كما أن من علامات الخذلان استعمال الزمان في غير مصلحة فضلا أن يكون في معصية ومفسدة.

وأعقل الناس من يستعمل عمره في الأهم ثم المهم، فالمهمات كثيرة والعمر قصير، وأسعدهم من يجعل لنفسه دائما شغلا بالحق وواجبا تسعى فيه، ولا يترك لها وقتا للفراغ، فإنها إن لم تجد ما يشغلها من الحق انشغلت بالباطل، وإن لم تحمل على ما ينفع توجهت وتفرغت لما يضر.

قال ابن القيم: "من الفراغ تأتي المفاسد، وتتوالى المعاصي على العبد في سلسلة مدمرة، تُضعِف الإيمان في القلب وتبعده عن مولاه، فمن فرغ من عمل جاد مثمر فلابد وأن يشتغل بما يضره ولا ينفعه.

وقال ابن القيم رحمه الله: "فهي النفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، وهو القلب إن لم تسكنه محبة الله عز وجل سكنه محبة المخلوقين ولابد، وهو اللسان إن لم تشغله بالذكر شغلك باللغو وما هو عليك ولابد، فاختر لنفسك إحدى الخطتين، وأنزلها في إحدى المنزلتين".

قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: "إن الله خلق الأيدي لتعمل فإذا لم تجد في الطاعة عملا التمست في المعصية أعمالا.. فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك في المعصية".

صفات عباد الرحمن، وهي إحدى عشرة صفة(التفسير المنير):

❶التواضع والطاعة لله تعالى. ❷ الحلم والكلام الطيب. ❸التهجّد ليلا. ❹الخوف من عذاب الله تعالى. ❺الاعتدال في الإنفاق. ❻ البعد عن الشرك بالله ❼اجتناب القتل. ❽اجتناب الزنى. ❾ تجنب الكذب والباطل وشهادة الزور. ❿قبول المواعظ. ❶❶الابتهال إلى الله تعالى.